الفقيه العارف العابد

الشيخ تقيّ الدّين إبراهيم بن علي الكفعميّ اللويزيّ الجُبعيّ الحارثيّ

بلدة جبشيت، و في وسط يمين الصورة مرقد الشيخ الكفعمي قدس سره

رابعُ الفقهاء الأعلام الذين حالفهم التوفيق في حفظ أدعية أهل البيت عليهم السلام، لترفد هذه الأدعية الأجيال بمخزون روحيّ ووجدانيّ قلّ نظيره. يُمكن معرفة عميق أثره الحصريّ بملاحظة قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ.. ﴾ الفرقان: 77.

الفقهاء الأربعة هم: الشيخ الطوسي، والشيخ الكراجكي (من طرابلس الشام)، والسيد ابن طاووس، والشيخ الكفعميّ. ومرقد الشيخ الكفعميّ في جبشيت - النبطية، كان ومايزال مزاراً معروفاً، ينبغي للمؤمن أن يحرص على التعريف به، وزيارته، والتبرّك بأنفاس الفقيه الكبير صاحب «المصباح» و«البلد الأمين» وغيرها من عشرات المؤلّفات كما يأتي.

هو الشيخ تقيّ الدين إبراهيم بن علي بن الحسن بن محمد بن صالح بن إسماعيل الحارثيّ العامليّ الكفعميّ. وصف نفسه في آخر كتابه «المصباح» وغيره: «بالكفعميّ مولداً، اللويزيّ محتداً، الجُبعيّ أباً، الحارثيّ نسباً..».

(والحارثي) نسبة إلى الحارث الهمداني صاحب أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّ المترجَم له هو أخو جدّ الشيخ البهائي، وهم من ذريّة الحارث رضوان الله عليهم.

و(الكفعميّ) نسبة إلى (كفر عيما)، وهي قرية من ناحية الشقيف في جبل عامل قرب جبشيت، واقعة في سفح جبل، مشرفة على البحر، هي اليوم خراب، غير أنّ آثارها وآثار مسجدها لاتزال ماثلة.

وعن خط الشيخ البهائي: إن (الكَفر) بمعنى القرية و(عيما) اسم لقرية هناك، وأصلها كفر عيما، أي: قرية عيما، والنسبة إليها كفر عيماوي، فحُذف ما حُذف لشدّة الامتزاج وكثرة الاستعمال فصار (كفعميّ). انتهى.

و(اللويزي) نسبة إلى اللويزة، قرية في جبل عامل. فأصل الكفعميّ من اللويزة، وأبوه سكن جبع من عاملة، ثم انتقل إلى كفر عيما، فولد ابنه فيها.

الولادة

اختلف المؤرّخون في سنة ولادته. قال السيد حسن الصدر في «تكملة أمل الآمل» إنّه رأى نسخة من «دروس» الشهيد الأول بخط يد الشيخ الكفعميّ وقد فرغ منها سنة 850هـ. يُضيف: «ولا أظنّه ينقص عن الثلاثين عند فراغه من الدروس، فيكون عمره يوم فراغه من المصباح - 895 هـ - في حدود 75 عاماً».

غير أنّ العلامة الطهراني، استظهر - في «الذريعة» - من القرائن أنّ ولادته كانت سنة 826هـ على وجه التحديد.

مرقد الشيخ الكفعمي في جبشيت في المقبرة القديمة

الأُسرة

قال العلاّمة الأميني صاحب «الغدير» إنّ والد الشيخ الكفعميّ؛ «الشيخ زين الدين علي، هو جَدُّ جدِّ شيخنا البهائي، أحد أعلام الطائفة وفقهائها البارعين. ويروي عنه، ولده [الكفعميّ]، ويُعبّر عنه بالفقيه الأعظم الورع، كما أثنى عليه [وجوه فضلاء عصره]. وقد تُوفّي قدّس سرّه سنة 861.

وخلّف الشيخ زين الدين علي خمسة بنين وهم:

1- تقيّ الدين إبراهيم، شيخنا الكفعميّ المترجَم له.

2- رضيّ الدين. 3- شرف الدين. 4- جمال الدين أحمد صاحب «زبدة البيان في عمل شهر رمضان»، وينقل عنه أخوه شيخنا الكفعميّ رحمه الله في تآليفه. 5- شمس الدين محمد، جدّ والد الشيخ البهائي، كان في الرّعيل الأول من أعلام الأمّة، يعبّر عنه الشهيد الثاني بالشيخ الإمام في إجازته لحفيده الشيخ حسين بن عبد الصمد والد الشيخ البهائي».

مشايخه

روى الشيخ الكفعميّ – إجازةً – عن جماعة عديدة، منهم:

1- والده المقدّس الشيخ علي زين الدين.

2- السيد الفاضل الشريف الجليل حسين بن مساعد الحسينيّ الحائريّ، صاحب «تحفة الأبرار في مناقب الأئمّة الأطهار».

3- السيد علي بن عبد الحسين بن سلطان الموسوي الحسيني، صاحب كتاب «رفع الملامة عن علي عليه السلام في ترك الإمامة». وكانت بينهما مكاتبات ومراسلات بالنَّظم والنثر، ومدحه الكفعميّ في بعض رسائله، ومدح كتابه المذكور، ونقل عنه كثيراً ودعا له بلفظ، دام ظِلّه. 4- الشيخ علي بن يونس، زين الدين، النباطي، البياضي، صاحب «الصراط المستقيم إلى مستحقّي التقديم». 5- أخوه الشيخ محمد بن علي، شمس الدين المتقدّم ذكرُه.

أقوال العلماء في حقّه

1- يقول العلاّمة المجلسي في الجزء الأول من «بحار الأنوار»: «كُتب الكفعميّ أغنانا اشتهارها وفضل مؤلّفها عن التعرّض لحالها». ونقل الشيخ عبد النبي الكاظميّ نزيل (جويا) من جبل عامل في كتابه «تكملة الرجال» أنّه وجد بخطّ العلاّمة المجلسي ما نصّه: «إبراهيم بن علي بن الحسن بن محمد بن صالح الكفعميّ، من مشاهير الفُضلاء والمحدّثين والصُلحاء المتورّعين، وكان بين الشهيد الأول والثاني رضي الله عنهما، وله تصانيف كثيرة في الدعوات وغيرها».

2- قال الحرّ العاملي رضوان الله عليه في «أمل الآمل» إنّه كان ثقةً فاضلاً أديباً شاعراً عابداً زاهداً ورِعاً، وأنّه قُدّس سرّه كان يقوم بجميع العبادات المذكورة في مصباحه، وتقوم زوجته بما لا يتّسع له وقته منها.

3- قال العلاّمة الأميني: «أحد أعيان القرن التاسع الجامعين بين العلم والأدب، الناشرين لألوية الحديث، والمستخرجين كنوز الفوائد والنوادر، وقد استفاد الناس بمؤلفاته الجمّة، وأحاديثه المخرجة، وفضله الكثير، كلّ ذلك مشفوع منه بورع موصوف، وتقوى في ذات الله، إلى مَلَكات فاضلة ونفسيّات كريمة، "..." وقبل ذلك كلّه نسبُه الزاهي بأنوار الولاية، المنتهي إلى التابعيّ العظيم، الحارث بن عبد الله الأعور الهمداني. وقد صرّح بانتسابه إلى هذا الموالي العلويّ (الهمدانيّ) لفيف من أساطين الطائفة ومشايخ الأمّة. وتوافقت المعاجم على سرد ألفاظ الثناء البالغ عليه».

4- ونقل المحدّث الشيخ عباس القمّي في «الكُنى والألقاب» عبارة الحرّ العاملي: «كان ثقةً فاضلاً أديباً شاعراً زاهداً عابداً ورعاً». وفي «مفاتيح الجنان» للمحدّث القمّي أدعية كثيرة نقلها عن مصنَّفَي الكفعميّ؛ «المصباح» و«البلد الأمين».

5- وفي «رياض العلماء» للميرزا عبدالله الأفندي: «الشيخ الأجلّ العالم الفاضل الكامل الفقيه المعروف بالكفعميّ، من أجلّة علماء الأصحاب، "..." وله اليد الطولى في أنواع العلوم لاسيما العربية والأدب، جامع حافل، "..." وسمعتُ أنه ورد المشهد الغروي على مشرّفه السلام، وأقام به مدة، وطالع في كتب خزانة الحضرة الغرويّة، ومن تلك الكتب ألّف كُتبه الكثيرة في أنواع العلوم..».

مؤلّفاته

على الرغم من فقدان أكثر مؤلّفات الشيخ الكفعميّ، إلاّ أنّ الموجود منها يكشف عن إحاطة تامّةٍ بالأخبار والروايات، واستيعابٍ فذٍّ لِلَطَائف المعاني العرفانيّة، وإلمام كامل بعلوم القرآن وتفاسيره، وقدرةٍ فائقة على امتلاك أزمّة الأدب العربي، والوقوف على أسراره، والاجتهاد في فقهه.

وقد أحصى له المحقّقون نحواً من خمسين مؤلَّفاً، كالتالي:

1- أرجوزة ألفية في مقتل الحسين عليه السلام وأصحابه، بأسمائهم وأشعارهم: قال الكفعميّ في «فرج الكرب وفرح القلب»: لم يُصنّف مثلها في معناها، مأخوذة من كتب متعدّدة، ومظان متبدّدة. 2- أرجوزة في تعداد الأيام المستحبّ صومها، في 130 بيتاً، ذكر السيد الأمين بعضها. 3- «الإسعاف والفضل، والإنصاف والعدل»: ذكره في «مجموع الغرائب» وقال: «جمعته من كتاب الفصول، ومن كتاب الجواهر، ومن كتاب نزهة الأدباء، ومن كتاب الغرة، ومن كتاب السياسة، ومن كتاب ورّام، ومن كتاب جواهر الألفاظ، ومن كتاب العبر، ومن كتاب اللطف واللطائف، ومن غيرها». 4- «البلد الأمين والدرع الحصين»: نقل منه العلامة المجلسي في «البحار»، وقال السيد الأمين: «صنّفه قبل (المصباح) وضمّنه – مضافاً إلى الأدعية والعوذ والأحراز والزيارات والسُنَن والآداب وغيرها – جميع أدعية «الصحيفة السجادية». وله عليه، وعلى (المصباح) حواشٍ كثيرة، فيها فوائد غزيرة، وله كتب ورسائل كثيرة في فنون شتّى، ذكر جملة منها في تضاعيف الكتابين وحواشيهما». 5- «تاريخ وفيّات العلماء». 6- «تعليقات على "كشف الغُمّة" للأربلي». 7- «التلخيص في مسائل العويص»: تلخيص «العويص في الفقه» للشيخ المفيد رضوان الله عليه. 8- «الجُنة الواقية والجَنة الباقية» المعروف بـ«مصباح الكفعميّ»: قال السيد الأمين في وجه معروفيّته بالمصباح: «لسبقه بمصباح المتهجّد للشيخ الطوسي، الذي كان مشتهراً بينهم، وعلى منواله نسج الكفعميّ، فاستعاروا له اسمه الذي كان مألوفاً لِخِفّته على ألسنتهم وتشابه الكتابين "..." وكُتبت منه نُسخ عديدة، بالخطوط الفاخرة على الورق الفاخر، في جميع بلاد الشيعة، وطُبع مرّتين في [الهند]، وثالثة في إيران..». 9- «الجُنة الواقية المختصرة»: تردّد العلاّمة المجلسي في نسبة هذا الكتاب إلى الكفعميّ، وقال إنّه لبعض المتأخّرين، وكذا شكّك في نسبته إليه الحرّ العاملي والميرزا الأفندي. 10- «حجلة العروس». 11- «الحديقة الناضرة». 12- «حديقة أنوار الجنان الفاخرة، وحدقة أنوار الجنان الناظرة». 13- «حياة الأرواح ومشكاة المصباح»: يشتمل على ثمانية وسبعين باباً في اللطائف والأخبار والمواعظ والأوامر والنواهي. 14- «رسالة في البديع»: ولعلّها «زهر الربيع» الآتي ذكره. 15- رسالة مخطوطة جمع فيها مسائل متعدّدة. 16- «الرسالة الواضحة في شرح سورة الفاتحة». قال السيد الأمين: ذكرها في حواشي «المصباح». 17- «الروضة والنحلة». وقد ذكر العلاّمة الأميني اسم «النحلة» منفرداً. 18- «زهر الربيع في شواهد البديع». 19- «صفط الصفات في شرح دعاء السّمات»: قال السيد الأمين: «ذكره في حواشي (المصباح) ورأيت نسخة منه في طهران في مكتبة الشيخ ضياء الدين النوري، فرغ منه آخر شعبان سنة 875، ويوجد في بعض القيود أن اسمه (صفوة الصفات) والظاهر أنه تصحيف». 20- «العين المبصرة». 21- «الغديرية»: قصيدة عصماء في مدح الإمام أمير المؤمنين أنشدها عند قبره عليه السلام بمناسبة عيد الغدير الأغر، وتبلغ 190 بيتاً. قال السيد الأمين: «يظهر من آخرها أنه عملها في الحائر الحسيني وأوردها في (المصباح) أيضاً». 22- «فرج الكرب وفرح القلب»: قال العلاّمة الطهراني إنّ هذا الكتاب شرح «البديعيّة في مدح خير البريّة» لصفيّ الدين الحلّي (ت 750 هـ). 23- «فروق اللغة». 24- «الفوائد الشريفة في شرح الصحيفة»: قال السيد الأمين: «في آخرها: نقلتُ هذه الصحيفة من صحيفة عليها إجازة عميد الرؤساء [هبة الله بن حامد]، ونُقلت من خط علي بن السكون، وقُوبلت بخط الشيخ محمد بن إدريس، واستخرجت ما على هامشها من كتبٍ معتمدٍ على صحّتها "..." ووسمتُ ما جمعتُه بالفوائد الشريفة في شرح الصحيفة..». 25- «قراضة النضير»: في التفسير وهو ملخّص «مجمع البيان» للطبرسي. 26- «كشف الظلام في تاريخ النبيّ والأئمة الإثني عشر عليهم السلام»: ذكره السيد مهدي الرجائي في عداد مؤلّفات الكفعميّ في تقديمه لكتاب المترجَم له «مجموع الغرائب»، لكن الميرزا الأفندي نسب هذا الكتاب إلى من سمّاه بـ(تقي الدين محمد الكفعميّ). 27- «الكواكب الدريّة»: قال العلاّمة الأميني: «الكوكب الدريّ». 28- «اللفظ الوجيز في قراءة الكتاب العزيز». 29- «لمع البرق في معرفة الفرق»: الأرجح أنّه «فروق اللغة» المتقدّم نفسه، ويدلّ على تبحّر مصنفه في علم اللغة. 30- «محاسبة النفس اللوّامة وتنبيه الروح النوّامة»: طُبع في عصرنا بتحقيق الشيخ فارس الحسون، وقال السيّد الأمين إنّه ضمن «البلد الأمين». 31- «مجموع الغرائب وموضوع الرغائب»: قال الكفعميّ في أوله: «جمعتُه من ألف مصنّف ومؤلّف». وقال السيد الأمين: «بمنزلة الكشكول، رأيت منه نسخة مخطوطة في المكتبة الرضويّة، من وقف أسد الله بن محمد مؤمن، الشهير بابن خاتون العاملي، وقفها سنة 1067». وقد طُبع هذا الكتاب بتحقيق السيد مهدي الرجائي، في قم 1412هـ. 32- «المقام الأسنى في شرح الأسماء الحسنى»: هذا الكتاب عبارة عن شرح قرآنيّ حديثيّ عرفانيّ لغويّ أدبيّ للأسماء الحُسنى، ويمتاز بلطافته وسلاسة عبارته. ذكره السيد الأمين باسم «المقصد

الأسنى . . . » وقال: « في ضمن البلد الأمين » . 33- « مشكاة الأنوار »، غير الذي للطبرسي رحمه الله . 34- « مقاليد الكنوز لأقفال اللُّغوز » . 35- « ملحقات الدروع الواقية للسيد ابن طاووس » . 36- « المُنتقى في العوذ والرُقى » . 37- « النخبة » . وذكر العلاّمة الأميني له: « النحلة » . 38- « نهاية الأرب في أمثال العرب »: ذكره العلاّمة الأميني باسم: « كفاية الأدب » . وقال السيد الأمين: « كبير في مجلّدين، قيل: إنه لم يُرَ مثله في معناه » . 39- « نور حدقة البديع ونور حديقة الربيع »: قيل إنّه « فرج الكرب وفرح القلب » المتقدّم، وذكر بعضهم أنّ نسخةً منه موجودة في إحدى مكتبات تركيا .

وفي « رياض العلماء » ثبتٌ بمختصرات لعدّة كتب أنجزها الكفعميّ رضوان الله عليه، منها:

1- « الغريبين » للهروي الشافعي . 2- « مغرب اللغة » للمطرزي . 3- « غريب القرآن » لمحمد بن عزيز السجستاني . 4- « جوامع الجامع » للطبرسي . 5- « تفسير علي بن إبراهيم » . 6- « علل الشرائع » للشيخ الصدوق . 7- « القواعد والفوائد » للشهيد الأول . 8- « المجازات النبوية » للسيد الرضيّ . 9- « كتاب الحدود والحقائق في تفسير الألفاظ المتداولة في الشرع وتعريفها »، ولعلّه للبريدي الآبي . 10- « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » لعبد الرحمن بن محمد بن سعيد الأنباري . 11- « لسان الحاضر والنديم » .

وفاته ومدفنه

اختلاف المؤرّخين في سنة ولادة الكفعميّ، انسحب أيضاً على تاريخ وفاته ومكان دفنه . فقد قال بعضهم إنّه تُوفّي سنة 900 للهجرة من غير أن يذكر مستنده، فيما قال العلامة الطّهراني والعلامة الأميني - نقلاً عن « كشف الظنون » - إنّه تُوفّي سنة 905 . إلا أنّ القدر المتيقّن أنّه رحمه الله كان حيّاً سنة 895، فإنّه فرغ من تأليف « المصباح » في ذلك التاريخ، وليس في تواريخ مؤلفاته ما هو أزيَد من هذا .

أمّا عن موضع دفنه، فقد قيل بكربلاء، وأنّه ظهر له لاحقاً قبر بجبشيث من جبل عامل . ومنشأ هذا الرّأي أنّه رضوان الله عليه كان سكن كربلاء مدّة، وبنى لنفسه أزجاً [بناء مستطيل الشكل] في الحائر المقدّس بأرضٍ تُسمّى عقير، وأوصى أهله أن يدفنوه فيه، ومن ذلك قوله:

سألتكم بالله أن تدفنوني ... إذا متُّ في قبرٍ بأرض عقيرِ
فإني به جارُ الشهيدِ بكربلا ... سليلِ رسولِ الله خيرِ مجيرِ
فإني في حفرتي غير خائفٍ ... بلا مريةٍ من مُنكرٍ ونكيرِ
آمنت به في موقفي وقيامتي ... إذا الناس خافوا من لظى وسعيرِ
فإني رأيت العُرب تحمي نزيلها ... وتمنعُه من أن يُنال بضيرِ
فكيف بسبط المصطفى أن يذود ... من بحائره ثاوٍ بغير نصيرِ
وعازٌ على حامي الحمى وهو في الحمى ... إذا ضلّ في البيدا عِقالُ بعيرِ

لكنّ المرجّح أنّ الشيخ الكفعمي تُوفّي في قريته بجبل عامل بعد رجوعه إليها من كربلاء المقدّسة، ودُفِن فيها . ثمّ خربت القرية بعد مدّة، فنزح أهلها منها وأصبحت محرثاً، واختفى قبره بما تراكم عليه من تراب، وظلّ مستوراً بالتراب إلى ما بعد المائة الحادية عشرة لا يعرفه أحد، ثمّ ظهر عند حرث تلك الأرض وعُرف بما كُتب عليه وهو: (هذا قبر الشيخ إبراهيم بن علي الكفعميّ رحمه الله) . وعُمّر، وصار مزوراً يُتبرّك به .

قال الميرزا الأفندي في « الرياض »: « وحكى لي بعض أفاضل الثقات من سادات جبل عامل متّعنا الله بدوام عمره وإفضاله، عن بعض ثقات أهل تلك النواحي من عجيب ما اتّفق فيه قريباً من هذه الأعصار: أنّ حرّاثاً [فلاحاً] منهم كان يكرب [يحرث] الأرض بثوره، فاتفق أن اتصل رأس جارته [محراثه] حين الكراب بصخرة عظيمة اقتلعها من الأرض، فإذا هو مِن تحتها بجثمان مكفون [ميّت ملفوف بكفنه] قد رفع رأسه من التراب كالمُتحيّر الفَرِق المستوحش، ينظر مرّة عن يمينه وأخرى عن شماله، ويسأل الراعي من عظم الواقعة . فلما أفاق [الراعي أو الفلاح] من غشْيته وجعل يبحث عن حقيقة الأمر، رأى مكتوباً على وجه تلك الصخرة صفة صاحب العنوان: هذا قبر إبراهيم بن علي الكفعميّ رحمه الله » .

صفحة ضريح الشيخ الكفعمي

وقال السيد حسن الصدر في « تكملة أمل الأمل »: « وحدّثني بعض الأجلّة الثقات أنّ قبره كان مخفيّاً وظُفر به في المائة الحادية عشرة، وله حكاية غريبة مشهورة، وأيضاً قد روى هذه الحكاية سيدنا آية الله العلاّمة صدر الدين العاملي عن بعض الثقات من أهل البلاد » .

أمّا السيد الأمين قدّس سرّه فقد أورد القصّة مرجّحاً أن يكون الحارث قد زاد من عنده حكاية المكفون الذي تلفّت يميناً وشمالاً كالمدهوش، لكنّه قال: « وقد سرى تصديق هذه القصة إلى بعض مشاهير علماء العراق » .

وقد علّق بعض المحقّقين على تشكيك السيد الأمين فقال: « وحكمُه هذا - أي: عدم صحة الواقعة، وإمكان أن يكون الحارث زاد هذه الزيادة من نفسه - في غير محلّه، إذ لا استبعاد من وقوع مثل هذه الواقعة بالأخصّ من الشيخ الكفعميّ شيخ العارفين، فهل يستبعد العقل أن يجعل الله هذه الكرامة للشيخ الكفعميّ ليُبيّن فضله للناس؟ وما حاجة الحارث إلى اختلاق هذه القصة؟ » .